المتنبي والقومية العربية

بقلم محمد خير الحلواني

لا يضير لقومية العربيه ان يكون شاعر من شعراء القرن الرابع الهجري لم يشعر بها، ولم يدع اليها، كما لا ينفعها ان يكون من دعاتها وانصارها . فان مفهومها في هذه الايام لا يقوم على دعوه عاطفيه فيها كثير من الفوضى ، وكثير من الاضطراب ، بل لعلها لم تستند دعوتها الى اسس فلسفيه. ونظائر علميه ، كما تستند في ايامنا الراهنة .

ولهذا لا اجد حرجا في ان انكر على المتنبي غيرته على العروبه ، وعصبيته لها ، وانكر ذلك على الباحثين الذين ادعوا دعوات عريضه ، فنسبوا للشاعر ما لم يخطر له على بال .

ولعل من الافضل ان نسوق حجج هؤلاء ، ونذكر شواهدهم على ذلك ، ثم ننظر في هذه الشواهد وتلك الحجج ، لنجد مقدار قوتها ، ودرجة صحتها . ومدى صدقها في دعوى قومية المتنبي وعروبيته، ولنبدأ بالاستاذ شفيق شفيق جبري(١) في كتابه « المتنبي ماليء الدنيا وشاغل الناس »

كان الاستاذ من المتحمسين لفكرة عروبية الشاعر ،ولهذا لم يناقش آراءه مناقشة هادئة ، ولم ينظر في شواهده التي ساقها لتدعم رأيه ، وتصدق دعواه ، ومن هنا كنت تجد عنده تاويلا غريبا ، وحملا للنصوص على غير ما يؤخذ منها، فاذا قال المتنبي في ابن العميد :

عربي لسانه ، فلسفي رأيه ، فارسية اغياده

استشعر ان في هذا روحا عربيا ، وان هناك تعصبا للعرب ، رغم ان القسمة بين العرب والعجم متساوية في هذا البيت ، فهم يذهبون بفصاحة اللسان ، وغيرهم يذهب بالفلسفة واقامة المباهج والاعياد .

واغرب من هذا انه يجعل الشاعر يفضل كل شيء عربي على غيره عند العجم ، وشاهده على ذلك هذان البيتان في سيف الدولة من قصيدتين مختلفتين:

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة لابلج لا بيجان الا عمائمه

نهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف اذا كانت نزارية عربا

ونحن لا نجد شيئا في البيت الاول ، وانما هناك كلام يقال في مثل هذا المعرض ، فقد عاد سيف الدولة منتصرا على الروم ، ونصب له رواق كبير ، علقت فيه صوره ملك الروم صاحب التاج ، فكان هذا المشهد داعيه لذلك المعنى ومن هنا لا نستطيع ان نلمح فيه نعره قوميه ، ولا ان حاضعه ، ولعله نذكر حينذاك ان التيجان عند العرب هي العمائم نفسها ، كما يشير القول المعرف من ان العمائم تيجان العرب ، وان السيوف اوديتها ، وان الحباء جدرانها .

واما البيت الثاني فما هو الا ضرب من تشقيق المعاني من لقب الامير « سيف الدولة » ، وقد عرف المتنبي بهذا ، ونه في ديوانه شواهد كثيرة :

لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه

وان الذي سمى علياً لمنصف وان الذي سماه سيفا لظالمه

وما كل سيف يقطع الهام حده وتقطع لزبات الزمان مكارمه

ويقول في غير هذه القصيدة :

ان الخليفة لم يسمك سيفها حتى ابتلاك فكنت عين الصارم

ويقول :

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

وكذلك في البيت « نهاب سيوف الهند » فهو يشير الى ان سيوف الهند تخاف على الرغم من انها « حدائد » فكيف لا تخاف أنت يا سيف الدولة ، وانت لست بحدائد ، وانما عربي تنتمي الى نزار .

ثم يتخذ الاستاذ جبري من حادثة الشاعر مع ابن كيغلغ سلاحا ماضيا ليقول :« فالمتنبي عربي في سلطانه ، وقد حملته عروبيته هذه في بعض الاحايين على ايلام الاعاجم ، فانه لما قدم من الرملة يريد انطاكية ، مر بابن كيغلغ ، وهو رجل رومي يحافظ على الطريق في طرابلس ، فسأله هذا الرومي ان يمدحه . **فترفع ابو الطيب عن مدحه** »(١)

وفي هذه الحادثة تحوير وتبديل للرواية التي يثبتها الديوان ، وتلخص بايجاز : ان بين الشاعر وابن كيغلغ عداوة قديمة ، وان ثلاثة نفر من بني حيدرة حرضوه على الشاعر،

(١) عميد كلية الاداب في جامعة دمشق سابقا .

(١) ص ٨٤ ـ مكتبة الشرق ١٩٣٠.

واغروه بطلب مديحه ، فاحتج ابو الطيب بانه اقسم يمينا لا يمدح احدا لمده ، فعاقه عن طريقه ينتظرها ، واخذ عليه الطريق وضبطها ، فهرب الشاعر الى دمشق فأتبعه ابن كيغلغ خيلا ورجلا ، فهرب الشاعر الى دمشق فاتبعه ابن مطلعها « لهوى النفوس سريرة لا تعلم (١) » وليس في هذه الروايه ترفع عن مديح غير العرب ، واكثر ما فيها ان الشاعر امتنع عن المديح للعداوة القديمة بينه وبين ابن كيغلغ ، ثم ان القصيدة نفسها تثبت هذا وتوضحه ، فهي تخلو من هجاء الرجل بالعجمة أو الانتساب الى غير العرب، وهي مليئة بالسباب وهجر القول ، فلو ان المتنبي كان يشعر بالعروبة ، او يتحسس حبها في قلبه ، لما وقف عند سبابه وشتائمه ، ولاطال في هجاء العنصر غير العربي .

الا ان امر الاستاذ جبري هين ازاء دعوى الاستاذ حنا الفاخوري في كتابه «تاريخ الادب العربي» فهو يستعير آراء عبد الوهاب عزام في كتابه عن « ذكرى المتنبي » ثم يزيد فيجعل الشاعر « يقدس القومية العربية ، ويؤثر الجنس العربي » كما يجعله « يحفز العرب على جمع كلمتهم لتحطيم نير السلطات الاجنبية ، والتحرر من قيودها ، مبينا في قوة وجلاء ضرورة استيلاء العرب على ازمة الحكم ، واعادة الملك العربي الى خصائصه وصحته » ويجعله « منذ صباه يناضل في سبيل استعادة المجد العربي باذلا من الحمية والتضحية الشيء الكثير ، وقد لاقى من جراء ذلك السجن والمضايق ويقول : « وهكذا لم ينخز المتنبي يوما عن هدفه الذي ارتآه ، وسعى اليه . منذ مطلع عمره حتى مقتله ويقول : « الا انه ما كاد يتوسم املا في أمراء خالصي العروبة كسيف الدولة ، حتى عاد يبوق للنهضة العربية ، ويهيب بالعرب في لهجة نابضة ملتهبة، الى الانضمام والتحرر (١)

واقل ما يقال في هذه السطور انها ضرب من الهراء ، لا تستند الى الواقع ، ولا تعبر عن الحقيقة ، وكأني بالاستاذ فاخوري قد تلقف ما كتبه امين الريحاني في مجلة «المكشوف» وشفيق جبري وعبد الوهاب عزام في كتابيهما فسجله دون ان يعود الى الديوان ، او دون ان يلتمس الحقيقة مما قالوا ومما قال . ولو كان ما يزعمه صحيحا لرأينا هذا ظاهرا في كل مدائحه لسيف الدولة ، وخاصة القصيدة الاولى التي مطلعها :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

فنحن نقرأ القصيدة من بدايتها حتى نهايتها دون ان نعثر على بيت واحد يلمح الى القومية العربية ، والى العصبية لها ، واكثر ما نجده فيها معان قديمة تقوم على الشجاعة والكرم ، فلو كان شعور المتنبي قويا بالقومية العربية لكان لقاؤه الاول لسيف الدولة أول باعث على اذكاء هذه العصبية ، ولكانت قصيدته الاولى فيه ، صرخة مدوية في وجوه الاعاجم والعبيد ، ولكننا لانلمس هذا ، ولا نقع عليه ، وذلك دليل على ان الرجل لايختلف عن الناس في زمنه ، او ذلك دليل على خطأ مايزعمه الزاعمون وينسبونه اليه في هذا المجال .

أما ان المتنبي سجن في سبيل استعادة المجد العربي ، فأمر لايعرفه التاريخ ، ولا يقره شعر الشاعر ، والاستاذ الفاخوري نفسه لم يذكر ذلك في حياة المتنبي ، ولا يقص علينا اخبار دعوته الى القومية العربية ، واخبار سجنه في سبيلها ، ومن اين له ان يذكر ذلك ؟ فنحن نعلم ان المتنبي قد سجن لانه ادعى النبوة ـ على اصح الروايات ـ في بادية السماوة ، ونعلم ان الذي سجنه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية ، فاذا كان الاستاذ فاخوري يعد هذا ضربا من الجهاد في سبيل القومية العربية ، فانه جهاد فارغ لاقيمة له ، لان الشاعر هنا لم يكن يسعى في ثورته الى جمع كلمة العرب ، ولكن الطموح هو الذي دفعه واهاب به ، وقد كان ذكيا حين انتقى اخلاطا من اعراب بني كلاب ينشر فيهم دعوته ، ويبثهم تعاليمه ، حتى لقيه السجن ، فأدبه واحسن تأديبه .

بقي شاهدان لم اذكرهما حتى الان ، ولعلهما اقوى الشواهد التي يسوقها الباحثون ، اما اولهما فالبيت الثاني

(١) شرح العكبري ١٢١/٤

(٢) ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩ الطبعة الثانية .

دواوين نزار قباني

من منشورات دار الاداب

الثمن

قالت لي السمراء	٥٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل

زينة لكل مكتبة

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

من قصيدة الشاعر المعروفة في مديح عضد الدولة ،وصفه لشعب بوان :

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

فهم يذكرون ان في هذا البيت لوعة وحرقة على ضياع العروبة ، وفقدانها من تلك الديار الخصيبة الممرعة ،ولعلهم قد فهموا ان « الـ » التعريف في كلمة « العربي » للجنس رغم ان الشاعر يريد بالفتى العربي نفسه هو لا الجنس كله وبهذا لايبقى الشاهد داعما لرأيهم ، ومؤيدا لزعمهم .

واما الشاهد الثاني فهو قوله يمدح علي بن ابراهيم التنوخي :

وانما الناس بالملوك فما تفلح عرب ملوكها عجم
لا حسب عندهم ولا ادب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها امم ترعى بعبد كأنه غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبري بظفره القلم

وهذا شاهد لايقوم دليلا على دعوة القومية العربية ، فأكثر ماهنالك هجاء يصدر عن حقد ، ويعبر عن بغضاء ، ولا يزيد عما قاله في كافور :

لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

وهذه ابيات أملاها الحقد ، وأجرتها الضغينة ، وساقتها الملابسات شخصية احاطت بالشاعر ، واحدقت به (١)

والواقع ان المتنبي شاعر طموح قبل كل شيء ، فاذا تلامحت له السيادة من بعيد سار اليها ، وحث الخطا ،دون ان ينظر الى اثر الدماء التي تتركها الاشواك بقدميه ، ثم هو لايبالي بجنسية ، ولا يأبه لعرق ، وهذا مايفسر لنا قوله في العبد الاسود كافور الاخشيدي :

ويفنيك عما ينسب الناس أنه اليك تناهى المكرمات وتنسب
واي قبيل يستحقك قدره معد به عدنان فداك ويعرب

أرايت كيف جعل كافورا فوق معد بن عدنان ، وفوق يعرب نفسه ، فهل يقول هذا من « يقدس القومية العربية» او من « يناضل في سبيل استعادة المجد العربي . »

ولعله قد تبين حتى الان ان بعض الباحثين يخطئون حين يسوقون شواهد من شعر شاعر ما ، لفكرة خاصة ، قبل ان يبحثوا عن الملابسات ألتي دفعته الى القول ، او المناسبة التي قال فيها شعره ، فكثيرا ماتكون هذه الشواهد بعيدة عن جو الفكرة وفحواها ، وكثيرا ماتكون دوافعها طارئة تزول ، ومصادفة تنقضي ، وخاطرة لاتلبث ان تغيب .

ولعله قد تبين ايضا انه ماكان يجول بخاطر المتنبي نعرة قومية ، ولا كان يفكر في ذلك البتة ، ولكنها النقمة على كافور هي التي أجرت على لسانه شتائم العجم ، والدليل القوي على ذلك هو قلة الشواهد التي يسوقها الزاعمون لدعواهم ، ولعل القاريء قد رأى ضعفها ، ولمس بطلانها ، ووجد انها لاترتكز على أسس متينة ، ولا تستند الى دعائم ثابتة .

واحب ان اعود الى ماذكرته في مطلع هذا البحث ، من ان القومية العربية لاتضار اذا لم يكن المتنبي من دعاتها ، ولا تنتفع اذا كان من اقوى انصارها ، في وقت لم يكن الشعور بها الا ضربا من العبث الذي لاينفع ولا يجدي ، لسيطرة الاعاجم على معظم الامصار التي تحكمها الخلافة الاسلامية ، حتى ان ناصر الدولة وسيف الدولة — وهما اميران عربيان — كانا يخضعان لسلطان البويهيين ، ويرضخان لامرهم اذا دعا الامر .

كما ان البحث العلمي يجب ان يحكم العقل لا العاطفة والا كانت لنا في معلوماتنا مجموعة ضخمة منسوبة بالخطأ ، وممزوجة بالاضطراب .

حلب محمد خير الحلواني
مجاز في الادب العربي من جامعة دمشق

(١) تركت مناقشة الدكتور عزام لاعتدال رأيه ، ولمناقشة الشواهد التي ذكرها هو وغيره في هذا البحث .

دراسات قومية

من منشورات دار الاداب

معركة المصير الواحد	ميشال عفلق
دروب القومية العربية	عبدالله عبد الدائم
القومية والانسانية	عبدالله عبد الدائم

دار الاداب

* ★ *